حوار مع الروح

جميع الحقوق
محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ ٢٠١٩م

www.alhatali.com

رؤى

اطلبه من:
مكتبة السيدة فاطمة الزهراء
هاتف: 92908620
92988061
25434506

تنفيذ طباعي
دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٠٣/ ٤١٣٢٥٦ - بيروت لبنان
dar.alkari2012@gmail.com

سلسلة حوارات هادفة (١)

حوار مع الروح

د. صالح بن مطر الهطالي

الحوار الأول:

التوبة النصوح والاستقامة على دين الله

الساعة الآن تقترب من الثالثة قبل الفجر، وأنا لا زلتُ مستلقيًا على سريري، أشاهد بعض اللقطات المثيرة من أحد الأفلام الجنسية الذي أعارني إياه أحد أصحابي، وكنتُ قد أغلقتُ أنوار الغرفة خشية أن يشكَّ أحدٌ من أهلي في بقائي مستيقظًا إلى ذلك الوقت.

وبينما كنتُ مستغرقًا في مشاهدة ذلك الفيلم إذا بي أسمع صوتًا خافتًا يناديني: أحمد!! فقلتُ لنفسي: لا بُدَّ أن والدي أو والدتي قد اكتشفا بقائي إلى هذا الوقت!! وهنا، أغلقتُ التلفاز

بسرعة، وجذبتُ اللحاف، وغطَّيتُ وجهي، وتظاهرتُ بأني مستغرقٌ في النوم!!

بعد لحظات، سمعتُ الصوت يأتي من جديد، وهو يقول لي: أحمد!! فقلتُ لنفسي: من الأفضل أن أردَّ على الصوت، وإلا شكَّ والدي أو والدتي في أمري. رددتُ بصوت خافت، وقلتُ: مَن؟!! فسمعتُ الصوتَ يقول لي: هل تسمح بلحظة أتكلم فيها معك؟!!

أصابني ذعرٌ شديدٌ مما سمعتُ، فما كانت عادة والـدي أو والدتي أن يخاطباني بهذا الأسلوب، ولا في مثل هذا الوقت!! وأيضًا، فالصوتُ لا يأتي من جهة الباب، ولكني أسمعه وكأنه قريبٌ مني!! تمالكتُ نفسي، ثم قلتُ وأنا أرتجف: مَن يُكلِّمني؟!!

ردَّ عليَّ: أنا روحك!!

ما إن سمعتُ كلمة الروح حتى ارتجفتُ من شدة الخوف، فكثيرًا ما أسمع الناس يَقرِنونها بالموت!! فقلتُ لنفسي: لا بُدَّ أنه قد حان أجَلي، وأن روحي قد جاءت لتُودِّعني قبل نزعها من جسدي!! تذكرتُ أني قبل قليل كنتُ أشاهد فيلمًا جنسيًّا، فأصابني هلعٌ وخوفٌ لا يوصفان، وبدأتُ أتذكر حياتي التي عشتُها في لهوي ومجوني ومجاهرتي لربي بالمعاصي والذنوب!!

تظاهرتُ بأني غير خائف، فقلتُ للصوت: ماذا؟!! روحي؟!! ومن أين أتيتِ؟!!

فقالت: أنا وُلِدْتُ معك، وسأبقى معك إلى أن تفارق هذه الحياة!!

تذكرتُ أنه فعلاً توجد روحٌ لكل إنسان، فقلتُ لها: وماذا تريدين مني؟!!

الخوف من المصير الأخروي أول مراحل التوبة النصوح

فقالت: أَمَا آنَ لك أن تتوب؟!! أَمَا آنَ لك أن تُقلِع عن غيِّك وفجورك؟!! ألا تخاف من بارئك الذي يراقبك وأنت تشاهد تلك الأفلام الخليعة؟!! ألا تخشى أن تنتهي حياتُك وأنت على تلك الحال؟!!

عندما سمعتُ هذه الكلمات تصدر منها، علمتُ أنه ليس هناك ما أخشاه، وأن الموت لن يأتيني الآن، وإنما هذه بعض ما يسمى بالأحاديث النفسية التي تأتي للإنسان بين حين وآخر، فتُكدِّر عليه صفْوَ حياته. لذلك، لم أُكترث بها، وإنما فتحتُ التلفاز مرة أخرى، وتابعتُ مشاهدة ذلك الفيلم!!

بعد لحظات، سمعتها مرة أخرى تناديني، وتقول: أحمد!!

تأفَّفتُ من هذا البلاء الذي حلَّ بي، وقلتُ لها بتضجُّر: ماذا؟!!

لم تردَّ عليَّ بكلام، وإنما سمعتُها تُردِّد قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد: ١٦).

عندما سمعتُ هذه الآية لأول مرة لم أُعِرها انتباهي، وإنما كنتُ مشدودًا إلى ما أشاهده في التلفاز من لقطاتٍ مثيرة. كنتُ أحاول أن أتجاهلها، وكنتُ أضع الوسادة حول رقبتي لئلاَّ أسمع حديثها، حتى وإن كانت آية من كتاب اللَّه!!

لكن شاء اللَّه أن يجعل ذلك الصَّوتَ الرنيم يصلُ إلى مسامعي، ولا أتمالك أحيانًا إلا أن أصغي إليه. خفتُ من أن تؤثر هذه الآية عليَّ، فصرختُ عليها، وقلتُ: كُفِّي كُفِّي... ماذا تريدين مني؟!!

لم تردَّ عليَّ بشيء، وإنما واصلتْ ترديد تلك الآية!! أحسستُ أنها تريد أن تخبرني بشيء، ولكنها لا تريد الحديث وأنا أشاهد ذلك الفيلم. أغلقتُ التلفاز، ثم ناديتُها: نعم!! تفضلي!! ماذا عندك؟!!

عندها، تكلمتْ فقالت: أنا خائفة عليك!!

قهقهتُ من كلامها، ثم بدأتُ أتهكَّم بها وبكلامها، وقلتُ لها: خائفة عليَّ؟!! هذا أمرٌ مضحك!! وممَّ تخافين عليَّ؟!! هل هناك ثورٌ بالخارج يريد أن يدخل عليَّ فينطحني؟!! لا،

بل أظنه فيلاً ضخمًا بنابَيْن طويلين!! أو ربما هو أسدٌ هصورٌ جائع يريد أن يفترسني!! يا وقحة أخبريني ماذا تريدين، فقد نغَّصتِ عليَّ ليلتي، وحرمتِني من المتعة التي بقيتُ مستيقظًا من أجلها إلى هذا الوقت!!

ردَّتْ عليَّ بصوتٍ ملؤه الحزن، وقالت: بل خائفة عليك من الموت!!

عندما سمعتُ كلمة **الموت** ارتجفتُ، وبقيتُ واجمًا لا أدري ما أقول!! إنها تقول بأنها خائفة عليَّ من الموت!! أتُراها تعرف شيئًا عن موتي؟!! وماذا لو كانت محقة، وأني سأموت قريبًا؟!! ولماذا هي خائفة عليَّ؟!! وما دخلها بـي؟!! ألستُ أنا الذي سيموت؟!! فلماذا جزعُها عليَّ؟!!

بقيتُ على هذه الحال لأكثر من دقيقة، أحاول أن أقول شيئًا، ولكن الكلمات تخونني!! ثم تمالكتُ نفسي، وقلتُ لها: وما دخلُكِ أنتِ بموتي وحياتي؟!! إني إلى الآن لا أدري من أين نزلتِ عليَّ، ولا مَن أرسلكِ إليَّ!! وقد كنتُ بدونِكِ على خير حال، فلما ظهرتِ عليَّ لم أسمع منكِ إلا منغِّصات الكلام ومكدِّراته!! أرجوكِ، ارحلي عني فإني في غنًى عنكِ!!

تأوَّهَتْ قليلاً، ثم قالت: إني فعلاً سأرحل عنك!! ولكنك عندها سترحل برحيلي!!

عجبتُ من هذا المنطق، فقلتُ لها ساخرًا: وما دخلي بـكِ؟!! إني أعيش هنا في رَغَدٍ من العيش، ولا أريد الرحيل إلى مكان آخر، فأرجوك مرة أخرى أن تتركيني وترحلي عني!!

أحسَّتْ بأني أواصل حديثي معها بأسلوبٍ ساخرٍ، فخاطبتني هذه المرة بنبرة حادَّة، وقالت: **إني عندما أرحل عنك، فحينها ستفارق أنتَ الحياة!!**

هزَّتني هذه الكلمات، وقلتُ لنفسي: مـاذا؟!! سأفارق الحياة؟!! هذا يعني أني سأموت!! لكني لا أريد أن أموت!! إني أريد أن أعيش وأتنعَّم بهذه الحياة!! لكني لا زلتُ لم أفهم لماذا تُذكِّرني بالموت، ولماذا تَقْرنُني معها؟ قلتُ لها: اسمعي!! أنا لا دخل لي بكِ، فارحلي متى شئتِ!! أما أنا فإني أريد أن أبقى!!

ردَّت عليَّ وصوتها يجهش بالبكاء: يا ويلي من غفلتك!! ألم تسمع قول اللَّه سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ

فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)؟

الندم على الذنب من أساسيات التوبة النصوح

عندما سمعتُ هذه الآية، أدركتُ حقًّا بأني سأرحل، ولكن كيف أرحل وأنا على هذه الحال من الذنوب والمعاصي؟!! أدركتُ فعلاً أني بحاجة إلى مَن يُوجِّهني وينصحني!! أدركتُ ضعفي وجهلي، فقلتُ لها بانكسار: وماذا تريدينَني أن أفعل؟!!

قالت: إني أحدثك في أمر جلَل يهمني ويهمك، فأرجوك أن تتبصَّر فيما سأقوله لك.

قلتُ لها: تفضلي!!

بـدأتْ تتحدث معي بحكمة وعقلانية، فقالت: نحن نعيش في هذه الحياة متلازمَيْن، ولا يمكن لأحدنا أن يعيش بدون الآخر!! إن سعادَتك هي سعادتي، وشقاءَك شقائي، وبلاءَك بلائي، ويوم تغمرك الصحة أصير أنا في بهجة، ويوم تقع في مأزق تتنغَّص حياتي وتتكدَّر!! فلماذا لا تكون بيننا أُلْفَة ومحبة؟!! لماذا لا نتفق على خطة واحدة نسير عليها؟!! لماذا لا نكون شيئًا واحدًا تغمرنا المحبة لبعضنا، ويسود الرضا فيما بيننا، وكل واحدٍ منا يهمه أمر الآخر؟!!

شعرتُ وكأن حديثها قد بدأ يلامس شغاف قلبي، فقلتُ لها: حسنًا، هذا كلام جميل، ولكن ماذا تقترحين عليَّ؟!!

فقالت: إن عليك أولاً أن تدرك أن اللَّه- سبحانه وتعالى- لم يخلقنا ليتمتع كلٌّ منا

بحياته، ويسير عليها حسب هواه ومزاجه، وإنما علينا أن نسير فيها وفق المنهج الذي اختطَّه- سبحانه وتعالى- لنا!! إن علينا أن نعيش في هذه الحياة سعداء شرفاء كرماء، لا نكتفي بأن نسير كما يسير الناس، ونرعى في جنبات هذه الأرض كما ترعى البهائم!! إن علينا أن نعيش طائعين لله، متمسِّكين بهداه، سائرين على منهجه، أينما كنا وحيثما ارتحلنا!!

بدأتُ أشعر بالغبطة لسماع هذا الكلام، ولكني عندما أتذكر ذنوبي، أقول لنفسي: هذا الكلام لا ينطبق عليَّ؛ فأنا متلبِّسٌ بالذنوب والمعاصي، ولا أظنُّ أن اللَّه سيغفر لي!! رددتُ عليها بنبرة فيها من الحزن والأسى ما لا يخفى، وقلتُ لها: إنَّ ما تقولينه كلام جيِّد ومنطقي، ولكنك تعلَمين أني اقترفتُ في هذه الحياة من

الذنوب والمعاصي ما لا يعلمه إلا اللَّه، ولا أظنُّ أن اللَّه سيغفر لي!!

فقالت لي بسرعة: لا يا صاحبي، لا تقل هذا!! إن هناك الكثير من الناس ممَّن أسرفوا على أنفسهم بالذنوب والمعاصي والبعد عنه سبحانه. ومع كل ذلك فإن اللَّه يدعوهم في كتابه ليعودوا إليه، فهو غفار الذنوب، وهو الذي يقبل توبة عبده وإن كانت ذنوبه مثل زَبَد البحر. ألم تسمع قول اللَّه- سبحانه وتعالى-: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)؟

فقلتُ لها: ولكني لم أقترف ذنبًا واحدًا، بل حياتي كلها ذنوب؛ فأنا نادرًا ما آتي شيئًا من الفرائض والطاعات، وقد هجرتُ القرآن منذ

زمن، وضيَّعتُ حقوق والديَّ وأهلي والناس، وغرتني هذه الحياة، فأسرفتُ على نفسي حتى صرتُ أقضي معظم أوقاتي في مشاهدة الأفلام والصور الخليعة ومعاكسة الفتيات، وإذا ما جلستُ مع أصحابي لا نتسلَّى إلا بالغيبة والنميمة والافتراء على الناس!!

فقالت: يا صاحبي، ليس المهم ما كنتَ تفعله، وإنما المهم هو أن تعود إلى اللَّه، وتقلع عن كل ما ترتكبه من ذنوب ومعاصٍ، وتتوب إليه توبة نصوحًا، واللَّه يقبل توبةَ المذنب، ويكفِّر السيئات، ويعفو عن الخطايا.

العمل الصالح من لوازم التوبة النصوح

شعرتُ بأن بابًا عظيمًا من الأمل قد فُتح أمامي، وأني- بإذن اللَّه- مقبلٌ على حياة جديدة.

لكني لا زلتُ لا أعلم من أين أبدأ، وماذا عليَّ القيام به بعد التوبة، فقلتُ لها: إنك تعلمين أني أجهل الكثير من أمور ديني، فهلَّا شرحتِ لي كيف أبدأ، وهل يكفيني فقط أن أقلع عما أفعله الآن، وأتوب إلى اللَّه منها، أم إن عليَّ أمورًا أخرى لا بُدَّ من الإتيان بها؟

استبشرتْ كثيرًا بطلبي هذا، وقالت: كم أنا سعيدة بأنك تريد الإقبال على اللَّه، وترك حياة اللَّهو والمجون. لكن عليك أن تعلم أن من لوازم التوبة النصوح أن تُقلِع عن الذنب، وتعقد النية الصادقة على عدم العودة إليه مرة أخرى. كذلك، الإقلاع وحده لا يكفي، وإنما عليك أن تُتبِع ذلك بإتيان الفرائض وأداء الواجبات والحقوق. واعلم يا صاحبي أن سعادتي وحياتي هي في ارتباطك باللَّه سبحانه وتعالى، وشقائي

هو في بعدك عنه، فأخلص عبادتك لله، وأكثر من النوافل وتلاوة القرآن.

عندما سمعتُ كلمة القرآن تأوهْتُ قائلاً: القرآن!! نعم، القرآن!!

فقالت لي: لماذا تـتـأوَّه؟!! وما شأنك والقرآن؟!!

فقلتُ لها: إنكِ تعلمين كم أنا مقصِّر في القرآن، فآخر مرة قرأتُ فيها بعض آيات من القرآن كان قبل أكثر من سنة، عندما حضرنا مأتمًا لأحد الأقارب، وكانوا يقرؤون فيه القرآن، فخشيتُ أن يراني الناس منشغلاً بشيء آخر وهم يتلون كتاب اللَّه، فشاركتهم القراءة!!

فردَّت عليَّ بصوتٍ فيه تأوُّه، وقالت: وهل تظنني لا أعرف ذلك؟!! لقد كنتُ أراقبك وأنت لاهٍ عن كتاب اللَّه، وكنتُ أعتبر نفسي في عداد

الأموات، فحياتي هي مع كتاب اللَّه وذكره. يا صاحبي، إن اللَّه لم ينزل علينا كتابه لنقرأه على الأموات أو في المآتم، وإنما ليكون منهج حياة لنا. كذلك، إن اللَّه لم يتعبَّدنا فقط بتلاوته، وإن كان في ذلك خيرٌ كثير، ولكنه- سبحانه- أمرنا بتدبُّره، والوقوف عند أوامره ونواهيه، وتطبيقه في حياتنا.

إن عليك أن تقضيَ ساعاتٍ طويلة مع كتاب اللَّه، تلاوةً وحفظًا وتدبُّرًا وفهمًا له. والسُّبُل إلى ذلك قد صارت الآن- بحمد لله- مُيَسَّرة؛ فكُتُب التفسير متوافرة، والعلماء والمشايخ موجودون. وعليك أن تكون قويَّ الثقة باللَّه من أنه- سبحانه- لن يُضيِّعك، وإنما سيُمهِّد لك ما تحتاج إليه. إن اللَّه- سبحانه وتعالى- يريد من عبده أن يبادر، فإن فعل فتح اللَّه له الأبواب، ويَسَّر له السُّبُل.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٥-٧).

أحسستُ أني بحقٍّ قد ابتعدتُ عن اللَّه كثيرًا، وأنه يلزمني معرفة الكثير عن ديني من أجل أن أستطيع عبادة اللَّه- سبحانه وتعالى- كما أمر. قلتُ لها: ما دُمتِ قلتِ من قبل بأننا متلازمان، فأرى أن تقضي معيَ ساعاتٍ طوالاً لتُفهميني أمور ديني التي أجهلها، ولا أخالني أعلم شيئًا عن هذا الدين العظيم.

ابتسمتْ، ثم قالت: لا بأس، فإني أيضًا حريصة على أن تتفقه في أمور دينك، لكي تستطيع عبادة اللَّه كما أمرك. لكن العلم بدون عمل لا يكفي، وقد علمتَ الآن أن عليك القيام بأمورٍ كثيرة كترك الذنوب والمعاصي،

والإخلاص في التوبة، ثم الإتيان بالفرائض وأداء الحقوق والواجبات بالصورة التي أمرنا اللَّه- سبحانه وتعالى- بها، وأخيرًا الاهتمام بكتاب اللَّه، تلاوة وحفظًا وتدبُّرًا وتطبيقًا.

وأرى أن تبدأ بهذه الأمور أولًا، وتُجهِد نفسك في الإتيان بها على الوجه الأكمل، وسأكون معك أشُدُّ من عزيمتك، وأُسْدي لك النصائح التي تضمن لنا- بإذن اللَّه- السعادة في الدارين. وعندما تُطبِّق هذه الأمور في حياتك تطبيقًا صحيحًا، حسبما جاء في كتاب اللَّه وسنة نبيهﷺ، فعندها تكون في الطريق الصحيح المؤدي لرضوانه سبحانه.

قلتُ لها: أنتِ محقة في هذا، وأنا أشعر الآن بالإرهاق، ولا أظنني سأستوعب المزيد،

ولذلك أُفضِّل أن أنام قليلاً إلى أن يؤذن لصلاة الفجر، وستكون هذه- بإذن اللَّه- فاتحة الطريق لحياة جديدة أحياها مع اللَّه ودينه وكتابه.

احذر أعداءك الثلاثة

فقالت: كم أنا سعيدة بهذا التغيُّر الذي طرأ عليك، ولكن عليك أن تعلم أن هذا التغيُّر العاطفي لا بُدَّ أن يُصدِّقه العمل، وعليك أن تحذر من شياطين الجنِّ ووساوسهم، وشياطين الإنس ومكائدهم، والنفس ورغباتها وأهوائها، وعليك أن تتذكر دومًا أن هذه الثلاثة عليك بالمرصاد، ولن تنفكَّ عنك حتى توردك المهالك، ولذا عليك أن تُخلِص جميع أعمالك لله- سبحانه وتعالى-.

عندما سمعتُها تحذرني من النفس، عجبتُ لذلك، وقلتُ لها: كيف تحذرينَني من نفسي؟!! ألستِ أنتِ والنفس شيئًا واحدًا؟!!

فقالت: هداك اللَّه يا صاحبي، كيف تكون النفس والروح شيئًا واحدًا؟!! لقد وصف اللَّه- سبحانه وتعالى- النفس بأنها أمَّارة بالسوء، فهي لا تنفكُّ تدفع صاحبَها لفعل الموبقات، وهي دومًا تجنح إلى الراحة ورغد العيش وسفاسف الأمور!!

أما أنا فسِرٌّ عظيم استودعني اللَّه في كل إنسان، ولا يعلم كُنهي إلا هو سبحانه، كما قال في كتابه العزيز: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)، والإنسان لا قيمة له

إلا بالروح؛ فمتى صَلَحتْ صَلَح حاله، ومتى فسدتْ فسد حاله.

قلتُ لها: كما قلتُ لكِ إنَّ عليَّ أن أتعلم الكثير عن ديني، ولكن عسى أن يكون ذلك في جلسات أخرى.

فقالت: بإذن اللَّه ستكون بيننا وقفات كثيرة، والآن أتركك لتنام قليلاً لتستيقظ لصلاة الفجر.

شكرتها على ما قدَّمته لي في هذه الليلة من نصائح وتوجيهات، ثم أغمضتُ عينيَّ، وبقيتُ أفكر فيما قالته لي إلى أن غلبني النوم.

الحوار الثاني: الاهتمام بالعلم والدعوة

مضى عليَّ الآن ما يقارب عامًا كاملاً منذ أن هداني اللَّه- سبحانه وتعالى- بسبب المناجاة التي دارتْ بيني وبين روحـي. ومنذ ذلك اليوم أقلعتُ- بحمد اللَّه- عما كنتُ أقترفه من موبقات، وصرتُ بفضله- سبحانه- أواظب على صلوات الجماعة في المسجد، ولا يفوتني شيءٌ منها. كذلك، خصَّصتُ أوقاتًا لتلاوة كتاب اللَّه، وحفظه، وتدبُّر آياته. وتعوَّدتُ أيضًا الاستيقاظ في كل ليلة لقيام الليل، فأصلي ما شاء اللَّه من الركعات، ثم أدعو اللَّه بما يتيسر لي من الدعاء.

وعندما أفرغ من ذلك، أجلس أتلو كتاب اللَّه تلاوة تدبُّر إلى أن يؤذن لصلاة الفجر.

وقد كانت روحي تشدُّ من عزيمتي، وترفع من همتي، وتبصِّرني بما ينبغي عليَّ فعله أو تركه. وكانت تشجعني على حضور دروس العلم ومجالسة العلماء، لكي أستطيع الإلمام ببعض أمور الدين التي أجهلها، كما كانت تحفِّزني على قراءة الكتب النافعة، والاستماع إلى المحاضرات المسجلة للعلماء المعروفين. وبحمد اللَّه، أحسستُ أن حالي بدأ يتغيَّر جذريًّا، وصرتُ أحرصُ على هذه الأمور أكثر من حرصي على الأكل والشرب والنوم.

وفي إحدى الليالي بينما كنتُ أتلو سورة الحديد، استوقفني قول اللَّه- سبحانه وتعالى-: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ

وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (الحديد: ١٦)، وبقيتُ أردِّدُها وأنا أبكي، وأتذكر ذلك اليوم الذي سمعتُ روحي تردِّدُها عليَّ، وكانت بحمد اللَّه سببًا في هدايتي.

الثبات على الاستقامة يحتاج إلى مواظبة وإخلاص

وبينما أنا على تلك الحال، إذ سمعتُ روحي تناديني: أحمد. مسحتُ دموعي، ثم قلتُ لها: نعم. فقالت: يا أحمد، كم أنا سعيدة بما حباكَ اللَّه به- سبحانه وتعالى- من هداية واستقامة. فقلتُ لها: الحمد لله، ذاك من فضل ربي. فقالت: ربما أدركتَ الآن أن على الإنسان الذي يسلك طريق الاستقامة أن يجتهد في عبادته لله، ويخلص كل أعماله وأقواله له سبحانه. فقلتُ

لها: حقًّا، إن السَّيْر في طريق الاستقامة، والثبات عليه، يحتاج من الإنسان إلى مواظبة وإخلاص، إلى أن يلقى اللَّه وهو عنه راضٍ.

فقالت: أجل يا أحمد، إن اللَّه لا يُضيع عمل عامل، وإنه- سبحانه- يضاعف الحسنات والأجـور، فهو الحليم الكريم، ربُّ العرش العظيم. لكن عليك أن تدرك يا أحمد أن نعمة الهداية التي امتنَّ بها سبحانه عليك تحتاج إلى شكر، وشكرها يكون بالمحافظة على الفرائض والواجبات، والإكثار من النوافل والطاعات.

الحرص على نشر الخير من أساسيات الدين

وعليك أن تعلم كذلك أن اللَّه- سبحانه وتعالى- ما خلق المسلم ليعيش أنانيًّا في هذه

الحياة، وإنما استوجب عليه أن ينشر هذا الخير الذي امتنَّ به- سبحانه- عليه، وأن يُبصِّر غيره بهذا الدين، ويُجهِد نفسه في ذلك، لكي ينتشر هذا الدين، ويعمَّ فضله على البشرية.

فقلتُ لها: إني بعدما سلكتُ- بحمد اللَّه- طريق الاستقامة، وذقتُ طعم الإيمان، وأحسستُ بحلاوته، شعرتُ بأن عليَّ مسؤولية كبيرة في نقل هذا الخير للآخرين. وإني أدرك أن غالبية الناس يعيشون في ظلمات من الحيرة والتخبُّط، ولو قيَّض اللَّه لأحدهم مَن يأخذ بيده إلى طريق الصلاح، فلا أخاله سيمتنع عن ذلك.

فقالت: فعلاً، ففطرة الإنسان فيها من الخير ما يجعل كل إنسان قابلاً لأن يسلك طريق الاستقامة، ولكن يحتاج ذلك إلى صبرٍ وحكمة.

القرآن الكريم منهج حياة

قلتُ لها: كما تعلمين فإني لا أريد أن أفوِّت فرصة كهذه، طالما أنها في مرضاة اللَّه، وفي خدمة دين اللَّه. لكن مشكلتي هي أني لا أعرف الطريقة التي أستطيع من خلالها مخاطبة الناس بحيث يُقبلون على دين اللَّه، ويتركون ما هم عليه من شركيات وكبائر وموبقات.

فأجابتني بسرعة: إن الأمر يسير!! ألا تذكر أن اللَّه- سبحانه وتعالى- قد زودنا بمنهج رباني فيه كل ما نحتاج إليه، وهو القرآن الكريم؟

فقلتُ لها: أجـل. ولكن، كيف لي أن أستخلص من القرآن الكريم ما يصلح لمخاطبة الآخرين ودعوتهم إلى دين اللَّه؟

فقالت: هداك اللَّه يا صاحبي، إن كتاب اللَّه فيه سعادة الناس في الدارين إن هم تمسَّكوا به، ولا يحتاج منهم أن ينتقوا منه أمورًا ويتركوا أخرى، فإن كل ما فيه خيرٌ. إن ما على الإنسان القيام به هو أن يفهم كتاب اللَّه كما أنزله على رسوله^، ويزاوله في حياته، وعندئذ سيرى- بإذن اللَّه- ثمرات ذلك المنهج باديةً في حياته، متجسدةً في أقواله وأفعاله وفكره.

فقلتُ لها: ولكن- كما تعلمين- فإن اللَّه- سبحانه وتعالى- أراد لكتابه العزيز أن يكون منهج حياة للبشرية جمعاء، ولذلك استودع فيه من العلوم والأحكام والأسرار ما جعل العلماء يُفنون حياتهم وهم يحاولون أن يفهموا ولو شيئًا يسيرًا مما استودعه اللَّه فيه. لذلك، أنَّى لمثلي

أن يفهم كتاب اللَّه، بحيث يستطيع تطبيقه في نفسه ونشره لغيره؟!!

فقالت: يا صاحبي، إن اللَّه- سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧). وهذا يعني أن كل ما عليك القيام به هو أن تُقبِل على كتاب اللَّه تلاوة وتعلُّمًا وتدبُّرًا، وستجد- بإذن اللَّه- أن اللَّه يفتح عليك من المعاني واللطائف ما يخفى على كثير من الناس. ولكن عليك أن تعلم أن ذلك لن يأتي إلا بالجِدِّ والمثابرة والصبر والتحمُّل.

فقلتُ لها: لقد أدركتُ الآن أن الكسل والخمول لا يأتيان بشيء، ولا يحقِّقان للمرء أيَّ نجاح.

فقالت: أحسنتَ يا أحمد، ولكن هناك من الناس مَن يَكِدُّون ويتعبون في هذه الحياة،

ولكن ليس في طاعة اللَّه، وإنما في جمع حطام الدنيا، وفي اللَّهو واللعب، والتمتع بملذات الحياة.

فهم القرآن الكريم يتطلب تعلُّم علومٍ أخرى

قلتُ لها: وهل يكفيني أن أركِّز فقط على كتاب اللَّه، أم إنَّ عليَّ فعل أمورٍ أخرى؟

فقالت: إن فهم كتاب اللَّه- سبحانه وتعالى- فهمًا حقيقيًّا يتطلب منك تعلُّم الكثير من العلوم الأخرى؛ فعليك أولاً أن تعي بدقة وعناية اللغة التي اختصها اللَّه- سبحانه وتعالى- لينزل القرآن بلسانها، وهي اللغة العربية. ثم إن عليك فهم سنة نبيك محمد ﷺ فهي مُفصِّلة لما جاء في كتاب اللَّه، وعليك أيضًا أن تدرس سيرته- عليه

الصلاة والسلام- وستجد فيها تجسيدًا حيًّا لما جاء في القرآن الكريم. وأخيرًا، عليك أن تعي أمور الفقه والشريعة، وما يتعلق بالتاريخ والسِّيَر، وما يهم الشعوب والأجناس والأقوام.

فقلتُ لها مندهشًا: هذا يعني أن عليَّ أن أكون مُلمًّا بعلومٍ كثيرة؟!!

فقالت: أجل!! إن عليك أن تنكبَّ على هذه العلوم بالبحث والمطالعة، تُلخِّص منها ما فهمتَ، وتستذكر منها ما نسيتَ، وتتدارس ما يخفى منها عليك مع مَن هو أعلم بها منك.

تبليغ هذا الدين أمانة في عنق كل مسلم

قلتُ لها: وماذا عليَّ بعد ذلك؟

فقالت: إن طريق العلم ليس له نهاية، وإنه بمجرد أن تخطو خطواتك الأولى في هذا

المشوار، ستبدأ مسؤولياتك تكبرُ، ومهامك تكثُر!! إن اللَّه قد حمَّلك أمانة تبليغ هذا الدين للناس أجمعين!! إنك في الوقت الذي تحاول فيه فهم كتاب اللَّه وتعلُّم العلوم الأخرى، فإن عليك أيضًا تبليغ ما تتعلمه للآخرين، وتبصيرهم بما تفهمه من كتاب اللَّه، فلعلَّ اللَّه يهدي بسببك أقوامًا ينتظرون وصول هذا الخير إليهم.

قاطعتُها بسرعة، وقلتُ لها: ولكنكِ تعلمين أني شخصٌ واحدٌ، ولا أمتلك القدرة على دعوة جميع الناس.

فقالت: بلى، إنك تستطيع؛ فإن اللَّه- سبحانه وتعالى- الذي حمَّلك هذه الأمانة يعلم طبيعتك وقدراتك وإمكانياتك، وهو لم يُحمِّلْكَ إياها إلا وهو يعلم أنك قادرٌ على حملها وتبليغها. وعندما تبدأ في حمل هذه الأمانة وتبليغها

للناس، وترى أن اللَّه- سبحانه وتعالى- قد هدى بسببك أقوامًا حُرِموا من هذا الخير، فإنك عندئذٍ ستنسى ما قد تصادفه في هذا الطريق من عناءٍ ومشقة، وستحاول مضاعفة جهدك، لتزيد من نجاحك وعطائك.

العمل الجماعي في الدعوة من أساسيات هذا الدين

قلتُ لها: إنك ما إن تَضعي عليَّ حملاً ثقيلاً، حتى تهوِّنيه عليَّ. إني لا أريد أن أفرِّط في هذا الخير، ولكني أخاف أن لا أستطيع حمل هذا الهمِّ بنفسي، فهلاَّ بحثتِ لي عمَّن يعينني عليه؟

فقالت: هوِّن عليك يا صاحبي، وهل تظن أن اللَّه- سبحانه وتعالى- قد كلَّفك بهذا الأمر وحدك؟ إن اللَّه قد بعث محمدًا ﷺ داعيًا للناس

أجمعين، وهاديًا إلى صراط رب العالمين، ولذلك فإن الناس منذ عهده^ وإلى يومنا هذا يتسابقون للسَّيْر في هذا الطريق.

إنك لن تكون وحدك، وإنما سيكون معك الألـوف، بل الملايين. إنك ستجد في هذا الطريق مَن يؤيدك ويناصرك ويحاول أن يخفف عنك العبء ويرفع عنك الحِمل، وستجد مَن يَدُلُّكَ على فعل الخيرات وينافسك في فعل الطاعات. عندها، ستحمد اللَّه بأن جعلك لا تستأثر بهذا الخير وحدك، وأنه لم يجعلك وحيدًا في هذا الطريق لكي لا تملَّ أو تفتر.

وإنكَ ستجد في هذا الطريق من إخوانك مَن هم خيرٌ منك، ومَن قد ساروا في هذا الدرب قبلك، وقطعوا في هذا المشوار خطوات أكثر منك، وحققوا نجاحات أفضل مما حقَّقت أنت.

كذلك، ستجد وراءك مَن يحاول اللحاق بك وبغيرك. إنك ستجد نفسك في موكب عظيم من الأخيار الأطهار الذين اصطفاهم اللَّه- سبحانه وتعالى- ليحملوا رسالته إلى الناس أجمعين.

فقلتُ لها: وهل ستصاحبينَني في هذا الطريق؟!!

فقالت: لقد أخبرتك من قبل بأننا متلازمان، ولذلك فإننا سنسير في هذا الدرب سويًّا بإذن اللَّه، وستكون بيننا وقفات نتسامر فيها، ويشد كل واحد منا أزْرَ الآخر؛ إن أثقَلَكَ الحِمْلُ لطَّفتُ عليك، وإن أحسستَ بالبؤس واليأس حاولتُ أن أرفع من معنوياتك، وإن آلمك صدودُ الناس وعدم استجابتهم لما تدعوهم إليه هوَّنتُ عليك، وذكَّرتُك بأنك تعمل لله- سبحانه وتعالى-، وأنه ليس من مهمتك مناقشة النتائج،

ولا التشكيك فيما يحصل لك، وإنما عليك أن تعي بأن النتائج بيد اللَّه- سبحانه وتعالى-، وأنه سبحانه سيُظْهِر تلك النتائج، وسيُقِرُّ أعيننا بها إنْ عاجلاً في حياتنا أو آجلاً بعد مماتنا، وأنه- سبحانه وتعالى- قد تكَفَّل بأن يُثيبَك على أعمالك، سواءٌ في هذه الدنيا أو بعد مماتك. وستجد يا صاحبي يوم القيامة- بإذن اللَّه- جبالاً من الحسنات بسبب ما ستقوم به في هذه الدنيا من تحقيقٍ لمنهجه- سبحانه وتعالى- ومن سيرٍ في طريقه، ومن القيام بما يأمر به والتخلِّي عما ينهى عنه.

قلتُ لها، وأنا أشعر بغبطة لا توصف: الحمد لله الذي رزقني روحًا طيبة تدلني على فعل الخير، وتحفِّزني على فعل الطاعات.

عندها رأيتُ روحي منشرحة مسرورة، فقالت: الحمد لله، إنما هو من فضل اللَّه. وإني لأرجو اللَّه أن تكون من الذين قال عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢)، ومن الذين وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُم

بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٢-٢٤). والآن، أتركك لتُكمل تلاوتك لكتاب اللَّه، فقد قارب الفجر أن يطلع.

شكرتها، ثم واصلتُ تدبُّر ما تبقى من سورة الحديد.